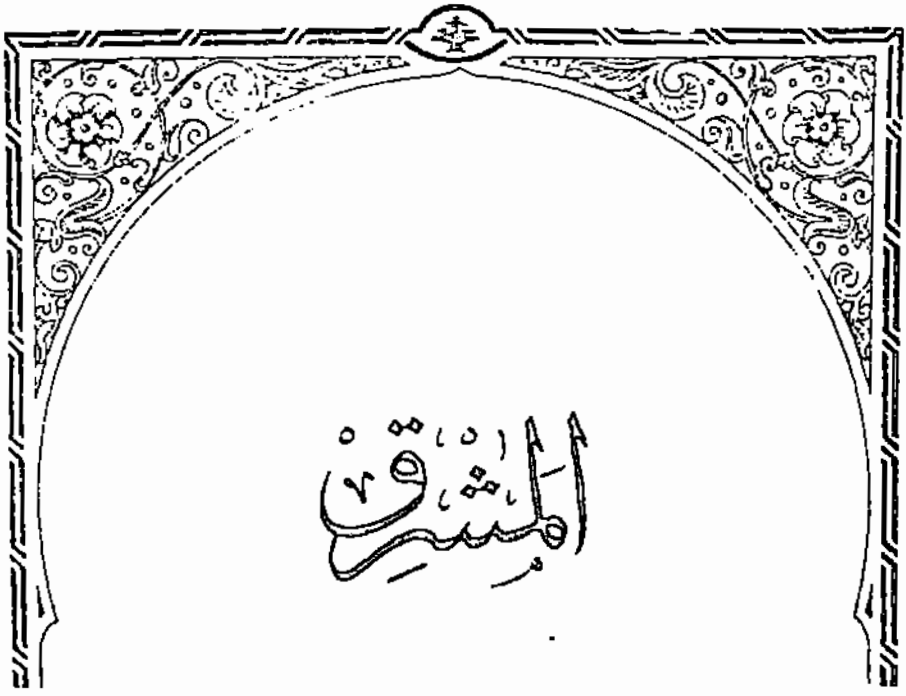

السنة الثامنة والاربعون — ك ٢ – شباط ١٩٥٤

صحف الكتابة وصناعة الورق في الاسلام

بقلم حبيب زيات ✝

المقدمة

من افجع نكبات العلوم العربية في الشرق ضياع اكثر مؤلفاتها القديمة في الفتن والحروب المتوالية وتلفها بين ألسنة النيران وافواه المياه وكأن كل هذه الجوائح لم تكن كافية لتمزيق شملها وتعفية آثارها حتى كانت تجهز عليها ايضاً ايدي الجهلة من الباعة والتجار والنساء. وقد ندب عماد الدين الاصبهاني سوء حظ كتبه ومسوداته ومصيرها بعد وفاته الى الاسكاف والعطار فقال :

هي كتبي وليس تصلح من بعـ ـدي لغير العطّار والاسكاف
هي امسا مزاود الغـبر او بطائن للخفاف

وكفى التركات العربية شقاء ان تُتَّهن صحفها فتكون مزاود للبقر وبطائن

للخفاف والعصائب ثم تحلّ بها ايضاً نقمة الغيارى من النساء . حكى ابن ابي أصيبعة قال :

« حدثني نسيب اوتق الدير من المطران انه لما توفي كانت عنده مسوّدات عدة مصنفات طبيّة وغيرها وتعاليق متفرقة فأحب احوانه تلك المسودات وضاعت بينهن وقال لي انه رأى عند احداهن صندوقاً ارادت ان تبطنه وقد الصقت في باطنه طبقة من هذه الاوراق التي تخطه[1]

وقال ايضاً في ترجمة الامير محمود الدولة ابي الوفاء المبشر بن فاتك الآمري الطبيب بعد ان وصف خزائن كتبه ودأبه في المطالعة والكتابة :

« كانت له زوجة كبيرة القدر ايضاً من ارباب الدولة فلما توفي رحمه الله ضمت هي وجواريها الى خزانة كتبه وفي قلبها من الكتب وانه كان يشتغل بها عنها فجعلت تندبه وفي اثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجواريها ثم شبكت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق اكثرها . فهذا سبب ان كتب المبشر بن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال »[2]

وكم لهذه الضحايا من اشباه ونظائر منسيّة .

وكان قديماً لكل خزانة في دور العلم وبيوت الحكمة وأوقاف الجوامع والمدارس أثبات وجرائد ناطقة بما فيها من المصنفات مفصّلة لنفائسها ونوادرها كالفهرس الذي كان في المدرسة النظاميّة مثلاً في بغداد . حكى احد امين وقف عليه بنفسه وهو شرف الدين ابو عبدالله محمد بن رضوان الحسيني المعروف بالناسخ بسماع فضل الله الصفاعي منه بدمشق في احد شهور سنة ستين وستمائة (١٢٦٧ م) انه وقف في المدرسة النظاميّة المذكورة على فهرست ما صُنف في الدولة الاسلامية من سائر الفنون الى آخر ايام المستنصر في سنة تسع وثلاثين وستمائة (١٢٤١ م) قال والفهرست ستة وخمسون مجلداً[3] . فما الظن بما كان بعد ذلك في سائر المدارس ومعاهد العلم وخزائن الخاصة على كثرتها وتفرقها في اهم المدن والاقطار . ومن اعتبر ما كان للبيروني وحده وقرأ قول ياقوت ان تصانيف البيروني في النجوم والهيئة والمنطق والحكمة تفوق الحصر وانه رأى فهرستها في وقف الجامع بجرو في ستين ورقة بخط مكتنز[4] يدرك مقدار ما

١) عيون الانباء في طبقات الاطباء ٢ : ١٨١

٢) عيون الانباء ٢ : ٩٩

٣) تالي كتاب الاعيان للصفاعي ٣٠٦١ باريس ٦٥

٤) ارشاد الالباء لياقوت ٦ : ٢١١

تلك هذا من مؤلفات السلف واوصافها وما حرمناه من كنوزها وفرائدها .

وفي مثل هذه الحال من ضياع المؤلفات وخسارة الخزائن وفهارسها لم يبقَ لنا سبيل الى ان نعرف هل تقدم لاحد كتاب في تعريف صحف الكتابة وصناعة الورق في الاسلام . ومعلوم ان الكتب والرسائل الموضوعة في الحرف والفنون كانت في كل عصر ومصر قليلة نادرة لان مثل هذه الاوصاف كانت دائماً من اضيق الاغراض نطاقاً واعسرها مطلباً لما تقتضيه من المشاركة والتخصص في معنى ما تفرق من اخبارها وما يحول دون الاحاطة باسرارها من عناء البحث والاستطلاع وطول التفتيش والمراجعة . وهو مـا لا يضطلع به الا من رُزق حظاً كافياً من الجلد والصبر وتميز بحب العلم والافادة . ولذلك قلّت المصنفات والشروح في تعريف العلوم والصناعات وانواع المعاشات واعرض الورّاقون عن الاهتمام بها وتوفير نُسَخها لزهد الطلاب والقراء في شرائها وتحصيلها وانصرافهم عنها الى ما كان اعلق بدروسهم وامسّ بحـاجاتهم كالكتب المختصة بالعلوم الدينية واللسانية . فلا عجب اذا خفي علينا اليوم جلّ ما ازدانت به الحضارة العربية من غرائب الفنون والحِرف والتجارات .

ومن الاشارات التي انتهت الينا في شرح انواع الصناعات قديماً مـا نقله الصفدي في ترجمة شرف الدين ابن اسد المصري المتوفى سنة ثمان وثلاثين او سبع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٧ — ١٣٣٦م) انه « وضع كتاباً في مادة كتاب ابن مولاهم في الصنائع الا ان الذي لابن مولاهم في خمسين صناعة والذي لابن اسد في الف ومئتي صناعة ومنها مئتان تختصان بالنساء قال : وهذا عمل كثير واستقراء عنيد[1] » . ولا محالة انه كان في هذين التأليفين ذكر لصناعة الورق لتعددها وانتشارها قديماً في مدن الشرق ولعلنا لا نبعد عن الحق اذا قلنـا ان خسارتنا بضياع كتابي ابن اسد وابن مولاهم تفوق كل خسارة اخرى لحار ما بأيدينا من العوض عنها . وانكأ ما في هذه الخسارة وادعاها الى التلهف والتحسر جهلنا اليوم ما كان للنساء خصوصاً من انواع الاشغال والحِرَف وهي ادلّ على ما بلغته الحضارة الشرقية من التفوّق والكمال واعرب عما تقدم في الحياة الاجتماعية من ضروب المعايش ووسائل الارتزاق .

٢) اعيان العصر دار الكتب المصرية رقم ١٠٩١ (تاريخ) ٣-٦٧٠

وقد امعنا كثيراً في التنقيب والبحث وتلمسنا كل ما تناولته اليد من المطبوعات والمخطوطات في طوايا على دور الكتب في الشرق والغرب فلم نظفر الا باسمي كتابين فقط ورد فيهما شيء من وصف صناعة الورق في الاسلام الاول كتاب « عمدة الكتاب وعدة ذوي الالباب » في صفة الخط والاقلام والليق والحبر والاصباغ وآلة التجليد الذي ألف للامير المعز بن باديس ومنه نسخة سقيمة في المعهد العلمي في دمياط . ونسختان ناقصتان في دار الكتب المصرية وثالثة في الخزانة التيمورية . ونسخ اخرى في الخزانة العربية في فينة. وهو الكتاب الذي ترجمه الى الالمانية وعلق عليه ونشره جوزيف ڤون كراباتيك سنة ١٨٨٣ وضمنه كل ما وسعه علمه من الفوائد في تاريخ الورق العربي[1] وغاية ما ورد فيه « الباب الحادي عشر في عمل الكاغد وتوشية الاقلام ونقشها وسقي الكاغد وتعتيقه » والكتاب الثاني مخطوط في الخزانة الآصفية بالهند لمحمد بن قوام المعروف بقاضي خان (٨٧٦ / ١٤٧١) دعاه المخترع في فنون من الصُنع (كذا) وقد تفضل صديقنا الاستاذ كوركيس عواد بتصدير صفحات الباب الخامس منه وعنوانه « عمل الكاغد البلدي ووضع الاسرار في الكتب وما يمحو الدفاتر والرقوق » ولكن لسوء الحظ الفيناء كثير التحريف وفي مواضع منه بياض غير قليل فلم نستفد منه الفائدة التي كنا نتوخاها .

وهنالك اجزاء وورقات وُضعت في ذكر القلم والليق والحبر كالرسالة التي قرأناها في دار الكتب المصرية وليس فيها ما يُحتفل به ولها نظائر في الخزائن العامة والخاصة خلافاً لما تقدم في معناها ككتاب القلم والدواة لمحمد بن عمر المدائني الذي اقتبس منه القلقشندي بعض اقواله في صبح الاعشى . ولا نشك انه قد فاتنا بضياعه فوائد شتى ان لم تكن في تفسير عمل الكاغد فلا محالة في اوصاف الورق وانواعه كالفصول التي وردت في مخطوط باريس (رقم ٤٤٣٩) الموسوم غلطاً في رأينا بعنوان « ديوان الانشاء » وهي التي نقلناها في الكلام على الورق المصري والشامي .

ولما اخفق رجاؤنا ان نعثر على دفاتر اخرى في شرح صناعة الورق والاستزادة

(١ A. Grahman : *Arabic Papyri in the Egyptian Library*. 3 vol. Cairo 1934—38

من وصفها اقبلنا على تصفح كل ما وقع الينا من كتب اللغة والانشاء والتراجم والسيَر والنوادر والمجاميع الادبية والاسفار التاريخية وقيدنا منها كل تصريح او تلويح الى القراطيس والكواغد واعمالها وانواعها واخبارها في الاسلام. وظللنا نعاني مشاقّ هذا الاستقراء الطويل عدة سنين حتى اعيانا المزيد. وضقنا ذرعاً باكتشاف جديد ورأينا انه اجتمع لنا من هذه اللُّقَط جانب ان لم يبلغ حد الكفاية ففيه على كل حال بلغة وغناء. في تاريخ الورق الشرقي فبدأنا على سبيل التمثيل بنشر فصول من مجموعنا بعنوان « الجلود والرقوق والطروس » ظهرت في مجلة الكتاب في القاهرة (يوليه — تموز سنة ١٩٤٧ ص١٣٥٨ — ١٣٦٦) ثم توقفنا عن المزيد ريثما يتيسر لنا تفقد شيء من ماضي الكاغد وصناعته في الاندلس العربي وهو ما اقتضى دهراً طويلاً لتعذر السفر اليه.

وقد رتّبنا ما عثرنا عليه من الفوائد والشوارد والاشارات ترتيباً نرجو ان نكون قاربنا فيه شاكلة الصواب واستمنّا في كتابة ما اخترناه في تعريف البردي والبرديات والقراطيب بمؤلف العلامة جرهمان[1] في المجلد الاول منه الذي عرّبه بمشاركة الدكتور حسن ابرهيم حسن في القاهرة سنة ١٩٣٤. وقدّمنا الكلام على ما سبق ظهور الكاغد في اوائل الخلافة العباسية من مواد الكتابة تقسيماً يخال لنا اننا احطنا باهم اجناسه واطلقنا على هذه المكاتب وبينها الحجر والخزف والعظام والجلود والثياب لفظة الصحف لان الصحيفة في اللغة تتناول كل ما يُكتب فيه وقد وردت لذلك بمعنى الجلد في حكاية دعبل الشاعر المعروف قال :

« جاءني ابو سعد المخزومي يوماً ببغداد اشد ما كان بي وبينه من الهجاء وبين يدي صحيفة ودواة وانا اهجوه فيها. فامرت الغلام برفع الدواة والجلد الذي كان بين يدي. فقال لي أنا اليوم في دعوة عندك (وبعد أن أكل وشرب) ودعني وانصرف وامرت غلماني فخرجوا معه الى الباب فاذا غلام منهم قد انصرف الي بقطعة قرطاس (فيها بيتان هجاء لدعبل) فقال دعبل : ويلي على ابن الفاعلة ماتوا جلدا ودواة. . فمدت الى هجائه »[1]

ومن اظهر الشواهد ايضاً على ورود الصحف بمعنى الجلود ما حكاه ابن المقفع عن الفرس وكتابتهم في الجلود البيض قال :

---

١) الاغاني طبعة بولاق ١٨—٥٢

«كانت الرسائل تحمل الى النبل تُقرأ على الملك وهي يومئذ تكتب في صحف بيض وكان صاحب الخراج يأتي الملك كل سنة بصحف موصنة قد دانت فيها ما احتوى من الخراج وما أنفق في وجوه النفقات وما حمل في بيت المال فيحتسبها ويحرجها . فلما كان كسرى بن هرمز تأذى برواتح تلك الصحف وامر ان لا يرفع اليه صاحب ديوان خراجه مما يرفع الا في صحف مصفرة بالزعفران وماء الورد وان لا تُكتب الصحف التي تُعرض عليه بحبر المال الا مصفرة ففُعل ذلك»[1]

وقد دعا ابو معشر البلخي مثل هذه المواد التي كان يُخطّ فيها «المكاتب» اي ما يكتب فيه وهي اصح تسمية واكثر مطابقة ولكننا اخترنا العدول عنها لامكان التباسها بمواضع التعليم اليوم او مواضع كتابة الجند للحروب قديماً.

ولا ريب انه شذ عنا كثير من اخبار الصحف واوصاف عمل الكاغد في الاسلام لقلة ما كتب عنها او لضياعه بيد الحوادث والغِير وما نشرناه منها كاف على كل حال للدلالة على ما كان لهذه الصناعة والاتجار بها من القدر وجلالة الشأن وقد طبقت شهرتها آفاق المشرق وبقي لها الى اليوم آثار في مصطلحات كتاب المغرب .

١ ــ اللِّخاف والحَزف

اللخاف حجارة بيض عراض رقاق واحدتها لُخْفة وفي حديث زيد بن ثابت حين امره ابو بكر الخليفة الاول ان يجمع القرآن قال : فجعلت اتتبعه من الرقاع واللخاف والعُسُب[2] وفي صحيح البخاري قال زيد بن ثابت : فتتبعت القرآن اجمعه من العُسُب والرقاع واللخاف وصدور الرجال[3] . ومن البديهي ان يكون اول ما عمد اليه الكاتب العربي لتسطير الكلام وتقييد الخواطر ما وقعت عليه عينه وتناولته يده من الحجارة البيض الرقاق العراض الملس لسهولة الخط عليها . واكثر ما كانت تستعمل في القرى والبوادي حيث يسهل وجودها واختيارها واما في المدن والحواضر فكانوا يؤثرون عليها شقاف الخزف والفخار وما تكسر من صحاف الفخار والآنية . وكان الشافعي في جدانته يتلقطها في جملة

١) فتوح البلدان للبلاذري طبعة اوربة ٢ : ٤٦٤
٢) لسان العرب ١١ : ٣٢٧
٣) صحيح البخاري ٢ : ١٦٣

ما يجمعه من صحف الكتابة لتدوين الحديث وهو قوله بسماع الربيع بن سليمان: لما خرجت من الكتاب كنت التقط الخزف[1].

وكانت مثل هذه الكتابة على الخزف باقية في ايام الخلافة العباسية حتى بعد ظهور الورق السمرقندي. وممن عُزل عن ولايته بسببها ابرهيم بن المهدي اخي هرون الرشيد وكان وليَ امارة دمشق فاشتهى يوماً شرب الصبوح وامر باغلاق ابواب «الخضراء» دار معاوية قديماً حيث كان يقيم عمّال دمشق ولم تكن خربت بعد خلافاً لمن ظن انها زالت بزوال دولة الامويين «فحضر الكاتب وسأله بعض الحشم ان يكتب له الى صاحب النُزُل وأعجله عن استخراج الدواة فأخذ فحمة وكتب في خزفة بحاجته فأخذ الحاجب سليم تلك الفحمة وكتب على الحائط «كاتب يكتب بفحمة وحاجب لا يعجل» واتفق ان وافى صاحب البريد وهو عين للخليفة يطالعه باخبار العمال والولاة فكتب بذلك الى الرشيد وهو في مدينة الرقة ووصل اليه كتابه في اليوم الرابع فساعة وقع بصر الرشيد على الكتاب عزل اخاه ابرهيم وحبسه مائة يوم»[2].

ومن امراء العباسيين الذين كتبوا في الخزف قبل الخلافة عبدالله بن المعتز قال بعض من كان يخدمه:

«خرج يوماً يتنزه ومعه ندماؤه وقصد الجديد وبستان الناعورة وكان ذلك آخر ايامه فأخذ خزفة وكتب عليها بالحبر[3]

عفياً لفضل زماني ودهري المحسود
ولي كليلة وصل قدام يوم صدود

قال وضرب الدهر ضرباته ثم عدت بعد قتله فوجدت خطه خفياً وتحته مكتوب:

أفٍّ لكل زماني وعيشي المحسود
فارقت اهلي والفي وصاحبي وودودي
ومن هويت جفاني مطاوعاً لحسودي
يا رب موتاً والا قراحة من صدود»[4]

---

١) ارشاد الارب لياقوت ٦: ٢٦٩ وتاريخ ابن عساكر دار الكتب الظاهرية دمشق ١٦: ٩٩

٢) تاريخ الاسلام للذهبي خزانة اكسفرد Lond. Or. 244 fo 182—83

٣) في الاصل المطبوع «وكتب على الجص» والصواب ما اخترناه.

٤) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لعبد الرحيم بن احمد العباسي ٢: ٤٤—٤٥

وكان صبيان المكاتب وبعض المتأدبين وطلاب الحديث يؤثرون هذه الصحف الخزفية الملس لتقييد ما يروق لهم او يُملى عليهم من الفوائد والسماعات. ومن اشهر الجزّارين الذين كانوا يُقصَدون للحصول على امثال هذه الرقاع لتدوين ما يتعجلونه او يقع اليهم من الاخبار والاشعار او العتاهية قبل ان يحترف الشعر حدث عبد الحميد بن سريع مولى بني عجل قال :

« انا رأيت ابا العتاهية وهو جرار يأتيه الاحداث والمتأدبون فينشدهم اشعاره فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيها »[1]

ولم يذكر احد بأي قلم او حبر في ما عدا الفحم والجص كان يكتب في اللخاف والخزف ولا سيما عند مفاجأة السماع ولعله كان لمثل هذه الصحف ادوات خاصة كالمعول الذي كان يكتب به على الالواح كما سيجيء.

وفي داري الكتب والتحف الملكية في القاهرة وبعض المتاحف الاوربية في ڤينّة وبرلين وهمبورغ قطع معدودة من هذه الخزفيات العربية الجميلة . وكان بين انقاض قصر خربة مفجر شمالي اريحا التي نقلت الى دار التحف في القدس قطعة من اللخاف كتب عليها بخط كوفي « لعبدالله بن هشام امير المؤمنين من عبيد الله بن عمر سلّم عليك فاني احمد الله اليك الذي لا إله الا هو ». وعُثر في قصير الحير الغربي على قطعة من اللخاف كتب عليها « من هشام امير المؤمنين الى أبي العباس احمد »[2].

٢ ــ الكَرَب والعُسُب

الكرب اصول السعف الغلاظ العراض التي تيبس فتصير مثل الكتف واحدتها كَرَبة[3] ومن اشهر من كتب الحديث على الكرب وملأ منها ومن غيرها الحباب والجرار الامام الشافعي كما سيأتي من قوله .

والعُسُب جمع عسيب وهو جريد النخل اذا نُحّي عنه خوصه والعسيب من السعف فويق الكرب لم ينبت عليه الخوص... ومنه حديث زيد بن ثابت :

---

١) الاغاني طبعة بولاق ٣ : ١٢٦

٢) مجلة المجمع العربي بدمشق (ايار — حزيران ١٩٦٢) ص ٢٢١—٢٢٥

٣) لسان العرب عن المحكم ٣ : ٢٠٨

فجعلت اتتبع القرآن من العسب واللخاف ومنه ايضاً حديث الزهري : قبض رسول الله (صلعم) والقرآن في العسب والقُضُم[1] قال لبيد يصف كاتباً :

عهود لِطَلل بعيد بكفه قلم على عُسُبٍ ذبلن وبان[2]

يريد بالعسب الذابلة اليابسة ويظهر ان العسب اليمانية كانت تفضل ما سواها ولذلك كانت اكثر ما تذكر في وصف مزامير داود قال امرؤ القيس :

لمن طلل ابصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يمان[3]

وقال كثيّر في وصف منازل البُضيع :

تلوح باطراف البضيع كأنها كتاب زبور خط لدنًا عسيبها[4]

ولم نجد من ذكر البان في غير بيت لبيد المتقدم فهل كان يُستصلح شيء منه للكتابة ؟

٣ ــ لخاء الشجر

من اشهر انواع قشور الشجر التي كُتب فيها قبل الاسلام لخاء الكاذي. قال المسعودي : كتب ملك الهند الى كسرى انو شروان... وكان كتابه في لخاء الشجر المعروف بالكاذي مكتوب بالذهب الاحمر . وهذا الشجر يكون بأرضي الهند والصين وهو نوع من النبات عجيب ذو لون حسن وريح طيب لخاؤه أرق من الورق الصيني تتكاتب فيه ملوك الصين والهند[5] .

وسمى البيروني هذا اللخاء « تاري » في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة (ص٨١ طبعة ليبسيك) ويشبه ان يكون الإسمان لمسمّى واحد ما لم يكن وقع تحريف في الثاني .

ويتحصل من قول حمزة الاصفهاني ان ملوك فارس سبقوا ملوك الهند والصين في الكتابة على قشور شجرة يقال لها الخَذَنك او الخدنك تعمل منها القسي

١) لسان العرب ٣ : ٨٤

٢) امالي القالي طبعة الدار ١ : ٥

٣) العقد الثمين في دواوين الشعراء الثلاثة الجاهليين ١٠٦

٤) معجم البلدان طبعة اروبة ١ : ٦٥٨

٥) مروج الذهب حاشية نفح الطيب ١ : ٢٢٤

التي ايضاً[1] ويسمى لحاؤها التوز. والحدنك نوع من الحبر الابيض قال حمزة:

« سنة خمسين ومئتين (٩٦١ م) تهدم من البيعة المعدة بمدينة سابور به داخل مشبة في جانب وطهر منه بيت فيه نحو خمسين عدلاً من جلود مكتوبة بخط لم ير الناس قبله مثله فلا يدري متى احرز ذلك في هذه البيعة. وسُئلت عما اعرفه من خبر هذه المعدة المحية البناء فاخرجت الى حضرة الناس كتاباً لابي معشر البلخي مترجماً بكتاب اختلاف الزيجة ويقول فيه : ان الملوك بالغ من عنايتهم بصيانة العلوم وحرصهم على بقائها على وجه الدهر واشفاقهم عليها من احداث الجو وآفات الارض ان اختاروا لها من المكاتب اصبرها على الاحداث وابقاها على الدهر وابعدها من التعفن والدروس لحاء شجر الحدنك ولحاؤه يسمى التوز وجم اقتدى اهل الهند والصين »[2]

وممن اشار الى ذلك ايضاً المافروخي قال :« كانوا يكتبون الكتب في لحاء التوز اذ صادفوها ابعد من التعفن واسلم من الدروس»[3]. ووصف البيروني لحاء التوز فقال يعملون به عملاً كالتدهين والصقل يصلب به ويملس ثم يكتبون عليها يعرف نظامها بارقام العدد المتوالي »[4] .

ويظهر ان ورق التوز كان معروفاً موجوداً بدمشق في اواخر القرن السابع للهجرة وهو ما يستفاد من قول ابن شاكر الكتبي في ترجمة جوبان بن مسعود القواس التوزي قال :

« لم يكن يعرف الخط ولا النحو وكانت كتابته من جهة التنوير في غاية القوة بحيث انه استعار من القاضي عماد الدين بن الشيرازي دوجاً بخط ابن البواب ونقل ما فيه الى درج بورق التوز وازرق ورق التوز على خشب واوقف عليه ابن الشيرازي فاعجبه وشهد له ان في بعض ذلك شيئاً اقوى من خط ابن البواب واشتهر بذلك في دمشق وبقي الناس يقصدونه ويتفرجون عليه وكان له ذهن خارق وتوفي في حدود الثمانين وستمائة[5] (١٢٨١ م).

ومن قشور الشجر التي كان يُكتب عليها وتختم بختم السلطان في مملكة الهند والسند ويتعامل بها كالنقود لحاء التوت وهي التي دعاها ابن البوطي « الجاوَ » وابن بطوطة «دراهم الكاغد»[6] قال شهاب الدين العمري في كلامه على المملكة المشار اليها :

١) الفهرست لابن النديم طبعة القاهرة ٣٣٦ وخطط المقريزي مطبعة النيل ٦ : ١٨٦
٢) تاريخ ملوك الارض طبعة كلكتا ١٧٢—١٧٣ والآثار الباقية للبيروني ٢٦
٣) محاسن اصفهان ٩٢
٤) تحقيق ما للهند من مقولة ٨١ ٥) فوات الوفيات ١ : ١٤٠
٦) طالع مقالتنا « دراهم الكاغد » في المزانة الشرقية ٣ : ١٣٩—١٤٠

« معاملتهم مقصور من لحاء شجر التوت مطبوعاً باسم الفان فاذا عتق ذلك المتعامل به حمله الى دواب الفان واخذ عوضه مع خسارة لطيفة كما يؤخذ في دار الضرب على ما يؤخذ اليها من الذهب والفضة ليُضرب عليها[1] . . . ومعاملتهم بورق التوت ومنها كبار ومنها صغار فمنها ما يقوم في المعاملة مقام الدرهم الواحد ومنها ما يقوم مقام درهمين ومنها ما يقوم مقام خمسة واكثر الى ثلثين وخمسين ومائة وهو يؤخذ من لحاء شجر التوت الأبيض ويختم باسم الفان وتجري به المعاملات فاذا عتق واضمحلّ حمل الى الخزانة وأُعطي عوضه مع غرم قليل »[2] .

٤ ــ العظام والاكتاف

في لسان العرب : الكتف عظم عريض يكون في اصل كتف الحيوان من الناس والدواب كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم (١١ : ٢٠٢).

وقال ابن النديم : « ان العرب تكتب في اكتاف الابل واللخاف وهي الحجارة الرقاق البيض وفي العسب عسب النخل »[3] . وذكر ابن خلكان في كلامه على « مسك الجفر » وهو جلد الماعز تقول الشيعة ان الامام جعفر الصادق كتب لهم فيه كل ما يحتاجون اليه وكل ما يكون الى القيامة قال . « كانت عادتهم في ذلك الزمان انهم يكتبون في العظام والخزف وما شاكل ذلك »[4] .

ولا ريب ان هذه الكتابة في البادية كانت شائعة كل الشيوع لكثرة الابل فيها وما كان يُنحر منها ولكنها كانت معروفة ايضاً في الحواضر وبقيت فيها الى ما بعد ظهور الورق وذلك لوفرة العظام والاكتاف قال الشافعي :

« لما خرجت من الكتاب كنت التقط الخزف والرقوق وكرب النخل واكتاف الجمال اكتب فيها الحديث واجيء الى الدواوين فاستوهب منها الظهور فاكتب فيها حتى كانت لأمي جباب : للأحمر اكتافاً وخزفاً وكرباً مملوءة حديثاً »[5] .

وكانت هذه الاكتاف سهلة المتناول يجدها المرتاد لها من ايسر سبيل ويُترسّل بها حتى الى النساء « قال الاصمعي : كان عمر بن ابي ربيعة وابن ابي

١) الجزء الثالث من مسالك الابصار خزانة باريس ٢٣٢٥ ص ٤٣
٢) الجزء الثالث من مسالك الابصار خزانة باريس ٢٣٢٥ ص ٤٦
٣) الفهرست ٣١
٤) وفيات الاعيان لابن خلكان ١ : ٣٩٣
٥) ارشاد الاريب طبعة مرجليوث ٦ : ٣٦٩ وتاريخ ابن عساكر الظاهرية دمشق ١٤ : ٩٩ ٣

عتيق جالسين بفناء الكعبة فمرت بهما امرأة من ربيعة وقيل من آل ابي سفيان فدعا عمر بكتف فكتب فيها :

أَلِمَّا بدات الخال فاستطلعا لنا على العهد باقٍ وِدُّها أم تصرما
وقولا لها ان الذي احتيلتْ بنا وبكم قد خفت ان تتبيّنا

فقال له ابن عتيق : «ما تريد الى امرأة مسلمة محرمة تكتب لها بمثل هذا؟»[1].

وحكى ابو الفرج الاصبهاني قال : حدثني مولى لبني كليب بن يربوع... قال : كنت اجمع شعر جرير... فجاءني ليلة ... فأكل ثم قال هاتِ تبيذك ثم قال هات دواة وكتفاً فأتيته بها فجعل يملي علي قوله : « أَقِلّي اللوم عاذلَ والعتابا »[2].

وفي بعض الاقوال ان الجواري والفتيات في عهد الخلفاء العباسيين كنّ يتلقّفن مثل هذه الكتابة ويتدرّبن عليها ولابي دلامة المشهور قصيدة الى العباس ابن المنصور قال فيها :

هذي مقالة شيخ من بني اسد يهدي السلام الى العباس في الصحف
تخطُّها من جواري المصر كاتبة قد طالما ضربت في اللام والالف
وطالما اختلفت صبغاً وشائيةً الى معلّمها بالسفح والكتف[3]

ولا نظن ان الاكتاف كانت تؤخذ من الابل وحدها دون غيرها من اكتاف الحُمر الوحشية والغنم والماعز وفي دار الكتب والتحف المصرية نفائس من الاكتاف المكتوبة .

٥ ــ الخِرَق والثياب البيض

في خزانة الادب للبغدادي ان المعلقات المشهورة كانت تسمى المذهبات قال : وذلك انها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت في الكعبة[4] . ولا ندري عمن نقل هذا القول وليس في الاثار القديمة ما

١) كتاب الموشى لابي الطيب محمد بن اسحق بن يحيى الوشا ٦٥-٦٦
٢) الاغاني ٩ : ١٢٦
٣) الاغاني ٩ : ١٢٦ والعقد الفريد لابن عبد ربه المطبعة الازهرية ١ : ٨٠
٤) خزانة الادب المطبعة السلفية ١ : ١٢٣

يؤيده وفيه اشارة الى استعمال القباطي في الجاهلية للكتابة . والقبا قبطية وهي ثياب من الكتان كان يصطنعها حاكة القبط في مصر في البياض والنقاء. ولذلك صح تشبيهها باللبن المحض في بيت لرجل من الك به المغيرة بن شعبة وكان اعور دميماً فشبّهه اذا مشى متأزرًا بقبطيته بـ ضرب من الحنفساء. يركض في اللبن فقال :

اذا راح في قبطية متأزرًا فقل حمل يسعى في لبن محض

ومن النُسج التي كانت تستصلح للكتابة الثياب القوهية. يقال ثو نسبة الى قوهستان بلد في كومان في فارس وهو ثوب ابيض قيل « لـ الثريا وعمر بن ابي ربيعة غالب كتب اليها :

كتبت اليك من بلدي كتابة مولـه كمـد.

وكتبه في قوهية وشنقه وحسّنه وبعث به اليها فلما قرأته.. كتبت ا

انا في كتاب لم يرَ الناس مثله أُمِدَّ بكافور ومسك وعن

وقرطاسه قوهيّة ورباطه بعقد من الياقوت صاف وحو

وربما كتبوا الصداق وهو مهر المرأة في القباطي البيض جمع قبطي الثياب وعدّ ابن الحاج مثل هذه الكتابة من باب المباهاة والمخالفة لبس القباطي مباحاً للرجال والنساء. قال : « وهذا ليس يلبس والـ موجود وذلك منهيّ عنه ولهم في الرق وغيره من المباح اتساع »[2] .

« ولما قال دعبل قصيدته المعروفة :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصا

كانت مكتوبة في ثوب فأحرم فيه وامر ان يعمل في اكفانه »[1].

وفي سنة ١٣٦/٧٥٣ « بايع ابو العباس السفاح لابي جعفر المنـ العهد بعده ولابن اخيه عيسى بن موسى بعد ابي جعفر و كتب العهـ

(١) الاغاني لابي الفرج ٢٧٨

(٢) الاعلاق الخطيرة للدمشقي ١ : ٢٢٥-٢٢٦

وختمه بخاتمه وخواتيم اهل بيته ودفعه الى موسى بن عيسى »[1] .

وفي سنة ٦٨٠/١٢٨٢ « يوم السبت سادس رمضان حضرت رسل الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول متملك اليمن وسألوا ان يُكتب لمرسلهم امان على قميص وتُعلّم عليه العلامة السلطانية فأجيبوا الى ذلك »[2] . . . .

وكانوا يتخذون ايضاً الثياب البيض للتصوير واكثر ما يصوَّر عليها « صفة الدنيا » قال ابن النديم : « رأيت هذه الصفة في ثياب دبيقي خام باصباغ وقد شُمّعت الاصباغ »[3] . ورأى البشاري المقدسي هذه الصفة « على كرباسة عند ابي القاسم ابن الاغاطي بنيسابور »[4] . والكرباسة ثوب من القطن الابيض تغلب عليه الخشونة ومثل هذا التصوير هو المعروف اليوم بالخارطة .

ومن اشباه هذه الثياب والخرق كانوا يتخذون الصُرَر لتغليف النقود وارسالها بعد ان يُخطّ عليها اسم مرسلها وعنوان من ترسل له وفيها كانت تدوَّن بعض الرسائل والمخاطبات والوثائق والبراءات . وكانت الحاكة في بوصير وسخنود يصطنعون خرقاً خاصة لمثل هذه الكتابات يجعلونها كالبطاقات ويعلقونها بأعناق الجرار والاوعية التي كانوا يصونون فيها الكتب ومدارج القراطيس خوفاً من تقصفها وتقطعها فكان بكل قطر منها بطاقة منوطة به باسم صاحبها بعد استنزال البركة عليه كما يشهد بذلك ما وجد في دفائن الصعيد من البرديات المكتشفة في القرن الماضي .

وفي دار التحف المصرية وبين مخرع البرديات في قينة امثلة في غاية النفاسة من قطع النسيج المكتوبة .

٦ ــ المهارق واثواب الحرير

للحارث بن حلزة اليشكري من معلقته :

---

١) تاريخ الموصل رواية ابي زكريا يزيد بن محمد بن اياس الازدي خلد مصور في دار الكتب المصرية رقم ٢٦٧٥ (تاريخ) ص ١٢٨

٢) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ٢:٣٠٧

٣) الفهرست ٣٩٧

٤) احسن التقاسيم ٦

واذكروا حاسد ذي المجاز وما قدم فيه اليهود والكهلا
حسد الخور والتعدي وبغي بعض ما في المهارق الاهواء

قال الزوزني : « المهارق جمع مهرق وهو فارسي معرب يأخذون الخرقة ويطلونها بشيء ثم يصقلونها ثم يكتبون عليها شيئاً »[1] . وروى صاحب لسان العرب قول حسان :

كم للمنازل من شهر واحوال لآل اسماء مثل المهرق البالي

وقال :

« المهرق ثوب حرير ابيض يُسقى الصبغ ويصقل ثم يكتب فيه وهو بالفارسية مهركرد وقيل مهره لان الخرزة التي يصقل بها يقال لها بالفارسية كذلك »[2] .

وجاء مثل ذلك في المعرب للجواليقي وان اصلها مهركرده اي صقلت بالخرز (وفي الاصل المطبوع صقلت بالجوز غلطاً)[3] . وهذا التفسير هو الاصل ثم عم الصقل سائر الخرق والاثواب فأطلق لفظ المهرق عليها بالمشابهة وتناول في ما بعد كل صحيفة يكتب فيها كما عم لفظ القرطاس كل انواع الورق وهو في الاصل موضوع لصحف البردي . ومن شواهد اطلاق المهرق على كل صحيفة قول شُيَيم بن خويلد الفزاري :

تسع اصوات كدريّ الفراغ به مثل الاعاجم تنشي المهرق القلم[4]

وعند الجاحظ ان المهارق ليس يراد بها الصحف والكتب ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كُتُب دين او كتب عهود وميثاق وامان »[5] وهذا اذا صح في بعض الشواهد كما في بيت الحارث بن حلزة المتقدم فلا يصح على الاطلاق والشواهد على خلافه في النظم والنثر كثيرة .

وكانت الكتابة على الصحف الحريرية اكثر ما تكون من خصائص الملوك ورجال الدولة والمترفين والاغنياء . « ولما صار عيسى بن موسى بقَيْد متوجهاً لقتال محمد بن عبدالله بن حسن كتب لرجال اهل المدينة في خِرَق الحرير »[6] . ونقل

١) شرح المعلقات للزوزني ١٨٣
٢) لسان العرب ١٢ : ٢٤٧
٣) المعرب للجواليقي ١٣٥
٤) نقائض جرير والفرزدق طبعة بيفان ليدن ١ : ١٠٦
٥) كتاب الحيوان للجاحظ طبعة القاهرة ١٣٢٣ ص ٢٥
٦) تاريخ الطبري طبعة ليدن ٣ : ٢٤٤

عن الخليفة العباسي الراضي بالله انه « ضاق صدره لكثرة ما اضطرب عليه من قيام المتغلبين بالنواحي فقال احب ان انظر في اخبار الماضين من الملوك لاتسلى بما مر عليهم فقيل له : ما تجد هذا مجموعاً الا في تاريخ محمد بن جرير الطبري فأمر ان يحضر له فأعجبه وقال : يُنسخ هذا في رق نظيف ويصوَّر جميع ما فيه وعزل له بيتاً ووجه الى دمشق (تستر) فاستعمل له ديباج منسوج بالذهب مكان الجلود »[1] .

وفي محاسن القيادة للجاحظ « ناولتني خريطة فيها اوراق فقالت : هذا اول ما ورد علينا منه . فاذا فيها ثوب خز ابيض يبقق مكتوب فيه بماء الذهب . . »[2]

وروى ابن خلكان ان المأمون « طالب والدة الفضل (بن سهل) بما خلّفه فحملت اليه سلة مختومة مقفلة ففتح قفلها فاذا صندوق صغير مختوم واذا فيه درج وفي الدرج رقعة من حرير مكتوب فيها بخطه « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قضى الفضل بن سهل قضى انه يعيش ثانياً واربعين سنة ثم يقتل ما بين ماء ونار »[3] .

وحكى ابن النديم ان « ملكة الفرنجة كتبت الى المكتفي كتاباً في حرير ابيض وانفذته مع خادم وقع الى بلدها من جهة المغرب تخطب صداقة المكتفي وتطلب التزويج به وكان اسم الخادم علياً من خدم ابن الاغلب »[4] .

واعتاد الملوك والامراء كتابة الصداق في الحرير « ولما تزوج هولاكو ببنت ملك الكرج داود قال ابن الدواب : وانا كتبت الكتاب في ثوب اطلس ابيض »[5] . وفي سنة ٦٣٢ / ١٢٣٤ تزوج مجاهد الدين ايبك ابنة بدر الدين لولو « وكتب الكتاب في ثوب اطلس ابيض »[6] .

واقتدى بهم الاغنياء . وقد سبق ان ابن الحاج عدّ ذلك من باب السرف والمخالفة . وقال علوان الحموي في اوائل القرن العاشر للهجرة « ان اقبح البدع

١) قطب السرور في وصف الاطعمة والخمور للرتيني القيرواني ٣٣٠٢ خزانة باريس ٣٥٣
٢) المحاسن والاضداد المنسوب للجاحظ ٣٦١
٣) وفيات الاعيان طبعة دسلان ٥٧٧
٤) الفهرست لابن النديم ٣٠
٥) المنهل الصافي لابن تغري بردي مجلد مصور في الجامعة العبرية في القدس ٨ : ٢٩٤
٦) الحوادث الجامعة لكمال الدين ابن الفوطي ٧٢

ما حدث في بلادنا في الاعراس. . . فاذا جرى العقد الى اهل العروس ان يكتبوا ذلك الا على حرير نحو ذراع او اكثر إسرافاً وتبذيراً »[1] . ولكن تاج الدين السبكي رجح جواز مثل هذه الكتابة وقال : واما كتابة الشروطيين الصداق في الحرير فيختلف في جوازه وافتى النووي بتحريمه وعزاه الى جماعات من اصحابنا ولكن الاظهر حلّه لانه لمصلحة النساء »[2] .

وندر جداً ان يكتب الصداق في غير الثوب الحرير الابيض وفي مجلة المجمع العلمي العربي صفة عقدين كتبا في اواسط القرن الثامن للهجرة على قطعتين من نسيج الحرير الاخضر لم يُبالها مر الزمان ولم تُصب احداهما بأدنى تزق وتخرق[3] فبأي حبر يا ترى كانت تمكن الكتابة على الحرير الاخضر حتى يأتي عليها الدهر دون ان تزول .

٧ ـ الالواح

لم نجد لاحد قولاً في الالواح وتعريفها على كثرة الاشارة اليها في كتب الادب وورود لفظها في القرآن وهي قديمة سبقت الاسلام واول ما اتخذت في ما يظهر من جرائد النخل التي نُزع خوصها وكان يقال لها السَّبورة بالباء والسفورة بالفاء. وفي الحديث : لا بأس ان يصلي الرجل وفي كمه سَبورة قالوا : « هي الالواح من الساج يكتب فيها التذاكير »[4] والساج خشب اسود رزين طويل البقاء. وربما اتخذت ايضاً من الاكتاف وعليه تفسير الازهري : اللوح صفيحة من صفائح الخشب والكتف اذا كتب عليه سمي لوحاً »[5] .

واكثر ما كانت تتخذ الالواح من الخشب المصبوغ بالسواد تغشاها طبقة من الشمع ليسهل الكتابة عليها ومحوها ولعلها اصطُنعت ايضاً من الحجر اللدن

١) نيهات الاسحار في نبذ من كرامات الاولياء والاخبار لعطية بن حسن المغربي بعنوان الحلبي رقم ٩٧ و٩٨ من دار الكتب الظاهرية بدمشق طالع خزائن الكتب بدمشق وضواحيها ص ٥٤

٢) مبيد النعم ومبيد النقم طبعة ليدن ٨٥–٨٦

٣) مجلة المجمع العربي بدمشق ٢١ : ٤١٩–٤٢٦

٤) لسان العرب ٦ : ٥ وتاج العروس ٣ : ٣٥٢

٥) لسان العرب ٣ : ٤٢١

وبعض المعادن كالرصاص . ولا يبعد كذلك ان تكون اتخذت اخيرًا من الورق المخطوط المصقول بعد انتشار صناعة الورق لخفة حملها في الاكمام وسهولة تجديدها ولكن معظم ما كان يُصطنع منها من صفائح الخشب المسوَّد لرخصها وقدرة احداث المكاتب على اقتنائها وكانوا يتدربون في كل حين على تعلم الكتابة فيها ونسخ ما كان يملى عليهم من آيات القرآن فكانوا لا يفارقونها دائمًا لانتفاعهم بها وتيسر محوها او غسلها حتى ان بعض واقفي المدارس من الوزراء والاغنياء كانوا يشترطون على الايتام صب مياه غسل الالواح على قبورهم تزلفًا وتبركًا بما خُطَّ عليها من آيات القرآن . قال صلاح الدين الصفدي في تاريخه : حكى لي القاضي شهاب الدين بن فضل الله رحمه الله تعالى قال : اجتزت بتربة الصاحب تاج الدين بن حنّا المصري فرأيت الى جانبها مكتبًا للايتام وهم يكتبون القرآن في الواحهم فاذا ارادوا مسحها غسلوا الالواح وسكبوا ذلك على قبره فسألت عن ذلك فقيل لي هذا شرط الواقف »[1] .

ولهذا السبب اي كتابة القرآن على الالواح اشترط الفقهاء شروطًا لغسلها قال ابن الحاج المالكي :

« ينبغي للمؤدب ان يجب عليه ان يكون لمسح الالواح موضع طاهر مصان نظيف لا يُشي فيه بالاقدام ثم مع ذلك يأخذ الماء الذي يمسح من المسح فيحفر له في مكان طاهر مصان عن ان يطأه قدم ويجعل فيه او يلقى في البحر او البئر وكذلك الماء الذي يغسل به الخرق بعد المسح يجعل في موضع بحيث لا يُتهن ويشترط في الخرق التي يمسح بها الالواح ان تكون طاهرة وان يكون الماء الذي تبلّ منه حين يمسح به طاهرًا والافضل ان يكون الماء غير مستعمل وان امكنه ان يكون حارًا فهو اولى لان من الناس من يشربه للاستشفاء به فاذا كان أحاجيًا امتنع عليه ذلك او تنغص بشربه »[2] .

وكان يقال لهذه الخرقة التي يمسح بها اللوح «الظلاسة»[3] من طلس الكتابة اذا ازالها ومحاها[4] وكان لهم اداة اخرى يقال لها المنجل اقتصروا في تعريفها على انها شيء تمحى به الواح الصبيان[5] دون اقل بيان كعادتهم كثيرًا في تفسير

١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٣ : ١٩٣
٢) المدخل ٢ : ١٦٥-١٦٦
٣) تاج العروس ٦ : ١٧٩
٤) تاج العروس ٦ : ١٧٨
٥) تاج العروس ٨ : ١٣٨

الفاظ الحضارة واستدرك في تاج العروس « انجل الصبي لوحه اذا محاه »[1] .

واكثر ما كان يكتب في الالواح باقلام الجص والطباشير وقد اشار كشاجم اليها في شعر له سيجيء فقال : « وقلم مداده تراب » وذكر ايضاً البشاري المقدسي اتربة اخرى في كلامه على تجارات فارس فقال : وبينيز (من نواحي شيراز) معادن حديد وطين ابيض يكتب به الصبيان الواحهم وطين اسود للختم »[2] وكان لهم قلم من حديد يكتب به لا شك فوق الشمع يقال له المنسول[3] ولكن اقلام التراب كانت اكثر انتشاراً واوفر استعمالاً لقرب متناولها في كل مكان ونزارة قيمتها واشراق بياضها على سواد الالواح[4] وقد تقدم ان من انواع الخشب التي تعمل منها الواح الصبيان وطلاب الحديث الساج[5] لرزانته وقلة بلائه وكان لارباب الثراء والمتأنقات من النساء الواح خاصة من الآبنوس لجماله وسواده ونصوع الكتابة فيه ومنه الواح كانت لمحمد بن بشير احد شعراء كتاب الاغاني تناط بسَير احمر يكتب فيها بالليل « زانها صفّان من صدف » اخذها منه قُثَم بن جعفر بن سليمان احد نشرائه فقال ابن بشير متلهفاً عليها :

أبغتِ الالواح اذ أُخذت ... حرقة في القلب تضطرم
زانها صفّان من صدف ... واحمرار السير والقلم
ونوى اخذها قُثَمْ ... لا نوى نفسها قُثَمْ[6]

ثم ندب فقدها في ابيات أُخر وصف فيها كل ما اجتمع فيها من المنافع والمرافق فقال :

ابنوس دهاه حالكة اللو ... ن لُباب من اللطاف المزاح
ذات نفع حقيقة النذر والمحـ ... ـل حكوكة الذرى والنواحي
وسريع جفوفها ان محاها ... عنه مُحْلٍ مستعجل القوم ماح

(١) تاج العروس ٨ : ١٣٦
(٢) احسن التقاسيم ٤٦٣
(٣) القاموس المحيط للفيروز ابادي ٤ : ٥٢ وتاج العروس ٨ : ١٣٠
(٤) كتاب البلدان لابن الفقيه ٦٥
(٥) تاج العروس ٣ : ٢٥٢
(٦) الاغاني ١٣ : ١٣٩

هي كانت عدتي وهي زادي ... دات وانعم غدتي وصلاحي
كنت اغدو بها على طالب العلم اذا ما غدوت كل صباح
هي كانت عداء رَوْري اذا را ... رَ وريّ الندم يوم اصطباحي
آب عمري وغاب بدري وحودي ... حين غابت وغاب عني سماحي[1]

وفي البيت السادس معنى فسره ابو الفرج الاصبهاني بقوله : « يعني انه يعمل فيها الشعر ويطلب لزواره المأكول والمشروب »[1]. واذا أخذ هذا البيت على ظاهره قبل يستفاد منه ان ابن بشير كان اذا اراد ان يبتاع شيئاً من البقال او الطباخ او الخمار كان يكتفي لقلة ما لديه من القرطاس او لارتفاع اثمانه ان يبعث اليهم بالواحه كالرقعة يطلب بالشعر ما يريد . واذا صح هذا الظن يكون من اظرف مُلَح الالواح واغرب فوائدها في تاريخ الحضارة العباسية .

ويتضح من اوصاف ابن بشير واتفاق كل الاخبار ان الالواح كانت عمدة الشعراء في تدوين بنات افكارهم وعدّة كل كاتب وراوٍ وطالب للحديث والعلم . «فحدث الاصمعي عن عيسى بن عمر قال : كنا نمشي مع الحسن ومعنا عبدالله بن ابي اسحق فقال الحسن : جاذبوا هذه النفوس فانها طُلَعَة فاخرج عبدالله بن ابي اسحق الواحه فكتبها وقال : استفدنا منك يا ابا سعيد «طلعة»[2] وروي عن ابي عبيدة انه قال : « اختلفت الى يونس اربعين سنة املأ كل يوم الواحي من حفظه »[3] . ولما اراد جرير ان يردّ على احد منا قضية « اقبل الى منزله وقال للحسين راويته : ترود في دهن سراجك الليلة واعدد الواحك ودواتك »[4] .

وكانوا اكثر ما يستعينون بهذه الالواح للكتابة العاجلة ثم ينقلون ما فيها الى الدفاتر كما جاء في ترجمة كيسان بن المعرف النحوي ابي سليمان الحجيسي قالوا : كان يخرج الى الاعراب فينشدونا فيكتب في الواحه ما ينشدونا وينقل من الواحه الى الدفاتر[5] ولذلك قال احد الشعراء :

١) الاغاني ١٢ : ١٣٩
٢) الفهرست لابن النديم ٦٢
٣) ارشاد الاريب ٧ : ٢١٠
٤) نقائض جرير والفرزدق طبعة بيفان ليدن ١ : ٤٣٠
٥) ارشاد الاريب ٦ : ٢١٥

ايها الطالب الآداب مهلاً لا تسئ عن حمك الالواح للادب
فحملها ادب تحوي به ادباً وسوف تنقل من فيها الى الكتب
وليس كل وقت ممكناً قلم ودفتر يا عديم المثل في الخشب[1]

وفي خبر سعد الوراق والغلام المقرهب عيسى قال الشاعر ابو بكر الصنوبري: عبرت يوماً انا والمهوج الشامي من بستان بتنا فيه فرأينا سعداً الوراق جالساً في ظل الدير وهو عريان فعذلناه وعنفناه فقال: دعاني من هذا الوسواس ثم التفت الي وقال: يا صنوبري فقلت نعم قال: اكتب...[2]

ومما سبق يتبين ان الالواح كانت لا تفارق كم كل اديب ومتعلم وكاتب وكانت الدواوين السلطانية نفسها لا تخلو من هذه الالواح يستعين بها بعض العمال والموكلين لتقييد الشوارد والطوارئ وهو ما يؤخذ من قول الشافعي: دخلت العراق في خلافة هرون الرشيد فعند دخول الباب تعلق بي غلام فلاطفني وقال: ما اسمك فقلت محمد فقال ابن من قلت: ادريس الشافعي فقال: مطلبي؟ فقلت اجل. فكتب ذلك في لوح كان في كمه وخلى سبيلي»[3].

ومن اغرب ما بلغ اليه رواج الالواح وانتشارها في كل الطبقات انه كان اذا ولد مولود يوضع عند رأسه لوح ودواة وقلم وهو ما ذكره ابن الحاج قال: «ينبغي ان يتحرز عما احدثه بعضهم في ليلة السابع وهو ان يكون عند رأس المولود الخامسة والشمع والدواة والقلم ورغيف من الخبز وقطعة سكر ان كان مفلساً ومن كانت له سعة عمل وليمة كبيرة من الكباش والفواكه من السكر وطبقاً من الفاكهة وقطعة من النقل وشمعاً ومن كان فقيراً اخذ من كل واحد شيئاً مما فاذا كانت جنبة تلك الليلة قرأن كل ما اجتمع عند رأسه من ذلك ويزعمون انه بركة»[4].

وكان صانع الالواح وبائعها يسمى الالواحي وبمن عُرف بهذا اللقب محمد ابن علي بن المنتخب المحب بن العلاء ابن الشمس الحلبي... يعرف جده بالالواحي لعملها[5].

---

١) المحاسن والمساوئ للبيهقي ١: ١١
٢) الديارات النصرانية في ديار الاسلام لنا ٨٢
٣) نمرات الاوراق لابن حجة ١٧٣
٤) المدخل ٣: ٥٥-٥٦
٥) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوي ٨: ٢١٠

وفي الالواح كانت تنقش بعض المراسيم السلطانية وتعلق على ابواب الجوامع فتشيع وتشتهر ولما حظ نظام الملك بعض الاعاظم التقيلة « امر ان يُنشأ في هذا المعنى مثال ويستنسخ منه نسخ تقرأ في الجوامع وبالاطراف على رؤوس المنابر وفي صدور المحافل والمحاضر وبان ينقش كتبهُ في الالواح تُستر على كل باب جامع ومشطاح يتأملها البلدي والغريب ويتسامع به البعيد والقريب »[1] .

وكان في المغرب مثل هذا الاعتياد للالواح بين العامة والخاصة والامراء والملوك وفي الاخبار المروية عن ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن امير المعامدة الموحدين قالوا « لما تجهز امير المؤمنين الى غزو الروم امر العلماء ان يجمعوا احاديث الجهاد تُملى على الموحدين ليدرسوها وهكذا جرت عادتهم الى اليوم فجمع العلماء ذلك وجاؤوا به اليه فكان يمليه على الناس بنفسه فكان كل واحد من الموحدين والسادة يجيء بلوح يكتب فيه الاملاء فجاء هلال (بن محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش) يوماً ولا لوح معه فاخرج القوم الواحهم فقال له الوزير : اين لوحك يا ابا القسر (وكانت كنيتهُ) فخجل وافتتح يعتذر فاخرج له امير المؤمنين من تحت بزنسه لوحاً وناوله اياه وقال: هذا لوحه . فلما كان من الغد جاء ومعه لوح غير الذي دفعه له امير المؤمنين فلما نظر اليه قال له : اين لوحك بالامس يا ابا القسر فقال : خبأته واوصيت اذا متُّ ان يجعل بين جلدي وكفني »[2] .

ومن افضل ما وصفت به الالواح ابيات الكشاجم الشاعر المعروف قالها في الراح آبنوس وهي كما جاءت في ديوانه المطبوع :

نعم المعين على الآداب والحكم صحائف حلُك الالوان كالظُلَم
لا تستمد مداداً غير صبغتها فسرّ ذي اللب فيها حد مكتتم
جلّت وحقت نام بدنس خاملها ثوب ولم يخشَ منها فوة القلم
وامكن المحو فيها الكف فانمحت لما تُضمّن من نثر ومنتظم
حلّيتها الحبر وانتخت لها وقاية من ذكي العود لا الأدم
فالكم يبقى منها حبر تُودعه عرفاً تُنمّم منها الطيب بالشمم
لو كنّ الواح موسى حين اغضبه هرون لم يلقها خوفاً من الندم[3]

١) محاسن اصفهان للمفضل بن سعد بن الحسين المافروخي طبعة طهران ص ١٠٣-١٠٤
٢) المعجب في تلخيص اخبار المغرب للمراكشي ١٨٣
٣) ديوانه المطبوع في بيروت ١٦٨

ويستدل من هذا الوصف ان الواح كشاجم كانت محلاة بالفضة خليقة باشعاره الذهبية وكان لها صوان من العود الذكي تحفظ فيه حتى اذا وضعت في الكم اكسبته طيباً وانتشرت منها ومنه رائحة العود وهو نهاية في التنوق والترف.

ويظهر انه كان من الالواح نوع يقال له لوح الهندسة او تخت الحساب لا ندري من وصفه الا قول كشاجم فيه :

وقلم مداده تراب في صحف سطورها حساب
يكثر فيه المحو والاضراب من غير ان يسود الكتاب
حتى يبين الحق والصواب وليس اعجام ولا اعراب
فيه ولا شك ولا ارتياب[1]

ومن اوصاف الواح كشاجم وما تقدمها من الاخبار والمُلح يتضح لكل بصير ما كان لصناعة الالواح وتزويقها وتجارتها في الشرق العربي من الشأن والشهرة والرواج بين كل الطبقات والاقوام من الاحداث والرجال والنساء. فكان لا يخلو منها منزل ولا حانوت فضلاً عن المكاتب والمدارس ولا تكاد تفارق فراش المحدّث والشاعر ويد السامع والسائر واليها كان يرجع حفظ الطالب وقلم الكاتب والحاسب فكان قسطها في خدمة الدين والعلم والحضارة يفوق غالباً قسط الكواغد والجلود والرقوق لرخص الالواح وغلاء الصحف ولم يترفع الملوك والامراء انفسهم عن جعلها احياناً تحت براثنهم كما مرّ بنا آنفاً. على اننا لسوء الحظ لم نوفق للعثور على اقل اشارة اليها بين اولاد الخلفاء العباسيين فلا ندري هل تأبطها ابن المعتز مثلاً ولم يومئ اليها مرة في شعره ولم يرو لها ذكر في جملة ما كان يجهزه خدم القصر من ادوات الكتابة لاولاد الرشيد حين كان يؤدبهم الاحمر[2] خلافاً لابناء المروانيين في الاندلس فان الصبي منهم كان يتردد كل يوم بلوحه ليشرف على الكتابة فيه باناملة الرخصة حتى اذا تدرج الى بعض الاجادة في التقليد والرسم تطير البشائر بحذقه وتقام من اجله الافراح. ولما نشأ لابي الاصبغ عبد العزيز بن الناصر ولد دخل الكتابة وكتب اول

١) محاضرات الراغب ١ : ٥٤ وديوان كشاجم المخطوط في ملك الدكتور سامي الدهان .

٢) ارشاد الاريب لياقوت ٥ : ١١٠

لوح فيه بعث ابو الاصبغ بلوحه الى اخيه الحاكم المستنصر ملك الاندلس وكتب معه :

هاك يا مولاي حظاً ... مضمر في اللوح مطا
ابن سبع في سنيه ... لم يُطق اللوح ضغطا
دمت يا مولاي حتى ... يلد ابن ابنك سبطا[1]

٨ ــ الجلود

كان اكثر كتابة العرب وملوكهم في الجاهلية وبدء الاسلام في الجلود ويقال للمدبوغة منها الأدم ومنها كانت صحيفة المتلمس التي يضرب بها المثل . واكثر ما كانت هذه الأدم من جلود الابل لوفرة ما كان يُنحر منها للطعام وقرى الاضياف وبها كان معظم اتجارهم في الاسواق وفي ما جاور من البلاد واشتهر بها في الجاهلية ابو سفيان والد معاوية وعمرو بن العاص « قيل كان عمرو بن العاص تاجراً في الجاهلية وكان يختلف بتجارته الى مصر وهي الأدم والعطر »[2] وربما قام ببيع الأدم في الاسواق بعض النساء كالخرمية التي ذكرها النابغة الذبياني بقوله :

كادت تساقطني رحلي وبثرني ... بذي الجليل ولم تحسس به نعم
من قول خرمية قالت وقد ظعنوا ... هل في ظعنكم من يشتري أدما[3]

واشتهر اليمن خصوصاً بوفرة الأدم فيه حتى كانوا يكنون بها عن الدراهم فيقال : « ليس بين الدراهم والأدم مثله ». يريدون بين العراق واليمن لان تبايع أهلها كان بالدراهم والأدم قال اوس بن حجر :

وما عدلت نفسي بنفسك سيداً ... سمعت به بين الدراهم والأدم[4]

قال الاصطخري : « في صعدة يتخذ ما كان يتخذ بصنعاء من الأدم ويتخذ بنجران وجرش والطائف أدم كثير غير ان اكثر ذلك يرتفع من صعدة وبها

١) نفح الطيب للمقري ٣ : ٢٢٣
٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة لابي عمر الكندي ٦–٧
٣) شعراء النصرانية ٦ : ٧٠٧
٤) اساس البلاغة للزمخشري طبعة الدار ١ : ٧

مجتمع التجار والاموال »[1] . وقال البشاري المقدسي : « صعدة اصغر من صنعاء عامرة في الجبال بهـا تصنع الركاء الجيدة والانطاع الحسنة ومنها يرتفع أدم جيد... ونجران مثل جرش وهما دون صعدة واكثر مـا يرى من الأدم في هذه المدن »[2] .

وكانوا يكتبون ايضاً في جلود الغنم والمعزى والحُمُر وسائر الدواب الاهلية والوحشية وفي جلود الظباء. وفيها كتبت مصاحف القرآن والتوراة ايضاً[3]. ويظهر ان جلد الحمر كان يسمى الفلجان ولم نجد هذه اللفظة في معجمات اللغة ذكرها ابن النديم في قوله : « ان الفرس كانت تكتب في جلود الجواميس والبقر والغنم وان الروم تكتب ايضاً في الفلجان وهو جلود الحمر الوحشية»[4]. وذكر ايضاً انه اجتمع في مدينة الحديثة برجل يقال له محمد بن الحسين ويعرف بابن ابي بقرة جمّاعة للكتب له خزانة قال : لم ار لاحد مثلها كثرة ... فاخرج لي قطراً كبيراً فيه نحو ثلثمائة رطل جلود فلجان وحكاك وقرطاس مصر وورق صيني وورق تبامي وجلود وأدم وورق خراساني فيها تعليقات عن العرب»[5].

ومن شواهد الكتابة في جلود الماعز كتاب الجفر المشهور الذي ذكره ابو العلاء بقوله :

لقد عجبوا لاهل البيت لما أتاهم علمهم في مَسك جفر

« والمسك هو الجلد والجفر ما بلغ من الماعز اربعة اشهر وجُفِر جنباه وانفصل عن أمه»[6]

ومن اغرب ما كتب فيه جلد الخف خف علي بن ابي طالب قبل خلافته. قالوا ان الكتاب الذي كتبه الرسول لتميم الداري واخوته في سنة تسع من الهجرة مُنصرفه من غزوة تبوك كتبه علي بخطه في قطعة من أدم من خفه[7].

وكانت الجلود البيض تفضل للكتابة لظهور سواد الحبر عليها ويقال لها

١) مسالك الممالك ٢٦
٢) احسن التقاسيم ٨٧
٣) تاريخ الهند للبيروني ٨٩
٤) الفهرست طبعة القاهرة ٣١
٥) الفهرست ٦٠-٦١
٦) وفيات الاعيان ١ : ٢٩١-٢٩٣
٧) مسالك الابصار للعمري ١ : ١٧٣

القُضْم جمع قضيم وفي حديث الزهري : « قُضْ رسول الله (صلعم) والقرآن في العسب والقضم »[1] . ومن شواهد الكتابة على الجلود والحمر : « ان اسقف نجران اتى عليا ومعه كتاب في اديم احمر قال : اسألك يا امير المؤمنين خط يدك وشفاعة لسانك » يعني لما رددتنا الى بلادنا قال فانى علي ان يردهم »[2] .

ولا حاجة الى القول ان الكتابة على الجلود قبل ان تعرف الدباغة الكوفية كانت تصعب جدًا ولا شك ان الجلود كانت تُصقل قبلًا ليهون مرّ القلم عليها ويسرع الخط فيها . ومن الادلة على ذلك ما حدّث به محمد بن الجهم السمري قال : « كنا اذا اتينا الاحمر — مؤدب اولاد الرشيد — تلقانا الخدم فندخل قصرًا من قصور الملوك . . . ويدفع الينا دفاتر الكاغد والجلود قد صقلت والمحابر المخروطة والاقلام والسكاكين »[3] . واعلها كانت تصقل ايضاً وتباع كذلك في حوانيت الجزارين ليتمكن المشتري من الكتابة عليها حالًا دون انتظار لصقلها . ومما يدل على ذلك ما روي عن سعيد بن العاص قال ابن عساكر :

« اتى عمرو بن سعيد بن العاص فتى من قريش يذكر حقًا له في كراع اديم بشرين الف درهم على سعيد بن العاص بخط مولى لسعيد كان يقوم لسعيد على بعض نفقاته وبشهادة سعيد على نفسه بخط سعيد فعرف خط المولى وخط ابيه وانكر ان يكون للفتى وهو صعلوك من قريش هذا المال فأرسل الى مولى ابيه فدفع اليه الصك فلما قرأه المولى بكى ثم قال : نعم اعرف هذا الصك وهو حق . دعاني مولاي فقال لي — وهذا الفتى عنده على بابه معه هذه القطعة الاديم — اكتب . فكتبت باملائه هذا الحق فقال عمرو للفتى : ما سبب مالك هذا؟ قال : رأيته وهو معزول يمشي وحده فمشيت معه حتى بلغ داره ثم وقف فقال : هل لك من حاجة فقلت : لا . الا اني رأيتك تمشي وحدك فأحببت ان أصل جناحك فقال : وصلتك رحم يا ابن أخي وقال : إبتني قطعة اديم فاتيت جزّارًا عند باب داره فأخذت منه هذه القطعة فدعا مولاي هذا فقال : اكتب واملى عليه هذا الكتاب وكتب شهادته على نفسه ثم وقعه الى وقال : يا ابن اخي ليس عندنا اليوم شيء فخذ هذا الكتاب فاذا اتانا شيء فأتينا به ان شاء الله فمات رحمه الله قبل ان يأتيه شيء »[4]

واول ما عولجت الجلود بالنسورة وبقيت مع ذلك عاسية لا تخلو من بعض

١) لسان العرب ١٥ : ٢٨٦

٢) كتاب الخراج لابي يوسف المطبعة السلفية ٨٨

٣) ارشاد الاريب لياقوت ٥ : ١١٠

٤) تاريخ ابن عساكر دار الكتب الظاهرية بدمشق ٧ : ١٢٦ والبداية والنهاية لابن كثير ٨ : ٨٧

الشوائب والآفات لان الدباغة لم تكن بلغت المبلغ الـذي انتهت اليه من الاصلاح والتطرئة والجودة . ثم حدثت الدباغة الكوفية وتحسنت طرق معالجة الجلود فلانت ورقت وتحلّت فهان الخط عليها . وفي الشعر عدة اشارات الى الكتابـة على الاديم اعتادوا ان يشبهوا بها رسوم الديار والدمن قال المرقشي :

الدار قفـر والرسوم كما رقّش في ظهر الاديم قلم[1]

وكانت الفرس قديماً تتخذ الجلود في الدواوين لطول بقائها وسبقهم في ذلك اليونانيون والروم وكانوا يكتبون فيها اسماء الجيش وارزاقهم قال ابن النديم : « والذي رأيت انا بالمشاهدة ان ابا الفضل بن العميد انفذ الى هنـا (بغداد) في سنة نيف واربعين وثلثمائة (٩٥١م) كتباً متقطعة أصيبت باصفهان في سور المدينة في صناديق وكانت باليونانية فاستخرجها اهل هذا الشأن مثل يوحنا[2] وغيره وكانت اسماء الجيش ومبلغ ارزاقهم وكانت الكتب في نهاية نتن الرائحة حتى كأن الدباغة فارقتها عن قرب فلما بقيت ببغداد حولًا جفّت وتغيرت وزالت الرائحة عنها ومنها في هذا الوقت شيء عند شيخنا ابي سليمان»[3].

ولا يخفى ما في اهمال استخراجها وضياع مضامينها من الخسارة للتاريخ والعلم.

وروى ابن المقفع ان الاكاسرة كرهوا رائحة دباغة الجلود حين كانت ترفع اليهم فامروا بتصفيرها بالزعفران وتطييبها بماء الورد وحكى البلاذري في هذا المعنى انه لما ولي صالح بن عبد الرحمن خراج العراق تقبّل منه ابن المقفع بكُوَر دجلة ويقال بالبيقاذ فحمل مالًا وكتب رسالة في جلد وصفّرها فضحك صالح وقال : انكرت ان يأتي بها غيره — يقول لعلمه بامور العجم[4] .

قال ابو الحسن المدائني : « واخبرني مشايخ من الكتاب ان دواوين الشام انما كانت في قراطيس (من البردي) وكذلك الكتب الى ملوك بني امية في حمل المال وغير ذلك فلما ولي امير المؤمنين المنصور امر وزيره ابا ايوب الموريانى

---

١) الامالي للقالي طبعة الدار ٢٤٦

٢) يغلب على الظن ان يوحنا هـذا هو يوحنا بن بطريق الترجمان ذكره القفطي في « اخبار العلماء » وقال انه كان اميناً على الترجمة حسن التادية للسماني ٣٤٨

٣) الفهرست ٣٣٦

٤) فتوح البلدان طبعة ليدن ٤٥٦-٤٦٥

ان يكتب الرسائل بحمل المال في صحف وان تصير الصحف فجرى الامر على ذلك »[1] . ونسب الجهشياري استبدال القراطيس بالجلود في ايام العباسيين الى خالد بن برمك لما وزر للسفاح وذلك قبل ظهور الكاغد[2] . حتى اذ كانت فتنة الامين نهبت الدواوين واخذت الجلود فجيت او غسلت واقام الناس ببغداد سنين لا يكتبون الا فيها »[3].

واكثر ما كان يكتب في الجلود خاصة صكوك العقارات والضياع وانواع الإقطاعات لقوتها على البقاء . وعلى ذكر الصكوك والجلود يحلو لنا ايراد ملحة من افكه الملح رواها ابن خلكان عن «كتاب الهدايا والتحف» للخالديين الشاعرين وقد تطلبناها في النسخة القديمة المحفوظة في دار الكتب المصرية فلم نجدها لما فيها من النقص وهي واردة في نسخة كاملة مصورة من الكتاب المذكور في ملك الدكتور سامي الدهان بدمشق . وهذا نص الملحة نقلاً عن ابن خلكان :

« كان باصبهان رجل حسن النعمة واسع النفس كامل المروءة يقال له سماك بن النعمان وكان يهوى مغنية من اهل اصبهان لما قدر ومتى تعرف بام عمرو فلافراط حبه اياها وصبابته بها وهبها عدة من ضياعه وكتب عليه بذلك كتباً وحمل الكتب اليها على يدي فشاع الخبر بذلك وتحدث الناس به واستظرفوه وكان باصبهان رجل متحلف بين الزكاكة يهوى مغنية اخرى فلما اتصل به ذلك ظن بجهله وقلة عقله ان سماكا انما اهدى الى ام عمرو جلوداً بيضاً لا كتابة فيها وان هذا من الهدايا التي تستحسن ويحمل موقعها عند من تهدى اليه فاشتاع جلوداً كثيرة وحملها على بغلين لتكون هديته ضعف هدية سماك وانفذها الى التي يحب فلما وصلت الجلود اليها ووقفت على الخبر تغيظت عليه وكتبت اليه رقعة نشتمه وتحلف ان لا تكلمه ابداً وسألت بعض الشعراء ان يعمل ابياتاً في هذا المعنى لتودعها على الرقعة ففعل ومنها :

أرأيت من يهدي الجلو د الى عشيقته سواكا
واظن انك رمت ان تحكي بفعلك ذا سماكا
ذاك الذي اهدى الضيا ء لام عمرو والحكاكا
فبعثت مغنية كأنك قد مسحت جبين فاكا[4]

وليت الخالديين نقلا لنا الابيات برمتها لظرفها وحلاوتها .

١) فتوح البلدان طبعة ليدن ص ٤٦٥
٢) كتاب الوزراء والكتاب ٩٠
٣) الفهرست ٣٣
٤) وفيات الاعيان ٢:٤٠٣